الفصل الثالث

عبد الله بن سعود

لقد أظهر عبد الله منتهى الحكمة والسداد حينما استقر رأيه على انتظار إبراهيم فى ديارة ؛ فبهذه الخطة يستطيع جنوده وهم فى أرضهم ، محتفظون بنشاطهم واتحادهم ، أن يحاربوا عدوهم بعيدا عن قواعد تموينه . وكان الأساس الذى قامت عليه هذه الخطة أن الجيوش المصرية عند ما تصل إلى مكان الموقعة الفاصلة ستكون منهوكة القوى من سيرها الشاق الطويل فى الصحراء بين القبائل المعادية ، وأن الغزاة سيحل بهم النصب والضعف من هجمات القبائل الضاربة فى البلاد الواقعة فى طريقهم .

ولا عيب فى رأى عبد الله إلا أنه أغفل الجانب الشخصى فى أعدائه . ويلوح أن أحدا لم يقص عليه قصة إبراهيم والطنفسة والتفاحة . ولو أن الزعيم النجدى سمع بهذه القصة وفكر فيما تنطوى عليه من المعنى ، لأيقن أن ابن محمد على سيطوى بساط الجزيرة طى الطنفسة . وهذا هو ما فعله القائد المصرى بالضبط ؛ فقد نفذ هذه الخطة بسيره فى الوادى الطويل المؤدى من مكة إلى نجد ، فسلم بذلك من سكان الإقليم المعروف بوادى الدواسر المتعصبين . ولم يتبعه فى سيره عدو ، ولم يكن يخشى إلا البدو الرحل وأهل القرى المبعثرة فى الطريق ، وهم قوم ليس بأيديهم من السلاح إلى القليل ؛ و إلى هذا فقد ضمن حاجته من الماء[1] .

ولم يكن يخفى على إبراهيم أن نجاح الحملة موقوف على ولاء القبائل التى

(١) پلجريف فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٣ وما بعدها .

سيخترق بلادها . نعم إنهم لم تكن لهم قوة يعتد بها ، لكنه كان فى حاجة إلى ولائهم ؛ ولم يكن يصعب عليه أن يحصدهم حصاد الهشيم ، ولكن معونتهم هى التى كان يحتاج إليها لتخفيف مشاق الطريق . ولذلك حرص على أن يظهر لهذه القبائل أنه لم يأت إليهم فاتحا بل صديقا مسالما . وهاك ما وصف به بلجريف سيره :

« كل دلو من الماء قدمها إلى جيشه البدو أو الحضر ، وكل تمرة جمعها الجنود ، وكل حطبة أوقدوها ، دفع ثمنها وأكثر من ثمنها على الفور ؛ وحرم على الجنود والضباط على السواء أن يؤذوا الأهالى العزل غير المحاربين ، أو يسيئوا إليهم أقل إساءة ؛ ونفذ ذلك التحريم بشدة وصرامة ، فأخذت القرى والقبائل تتسابق فى تقديم الطاعة والخضوع للمصريين . . . إلا أقلية ضئيلة ظلت ممتنعة عن أن تستبدل بحكم « المسلمين » سيادة « غير مصر » . وحتى هؤلاء لم يقس إبراهيم عليهم ، بل أظهر الرأفة بهم عن قصد وتدبير ، فلم يسئ إليهم بأكثر من إرغامهم على أن يجلوا عن مساكنهم ، ويسبقوه إلى أواسط نجد « ليزيد بهم جيش المؤمنين » كما قال هو باستهزاء لاذع . وكان غرضه الحقيقى أن يستنفد هذا الهوش الخليط العديم النفع موارد عبد الله ويوهن قوته[1] .

ولسنا نقصد بهذا أن قلب إبراهيم كان يفيض حناناً ورأفة ؛ بل كل ما نعنيه أنه كان يطوى بساط الجزيرة ، وأنه كان يرى من مصلحته الحربية أن يضم هذه العناصر المختلفة إلى جانبه . وقد نجح فى هذه الخطة نجاحاً جعل مقام عبد الله فى بلاده يعود عليه بأوخم العواقب . على أن إبراهيم لم يجد الأمور أمامه سهلة مذللة ، بل لاقى صعاباً جمة قبل أن يستطيع بسط سيادته الكاملة على هذه الأرجاء .

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٤٥ .

وحمى وطيس القتال حول الرَّس[١] وضيق إبراهيم الخناق على حصنها ، وخسر فى هذا الحصار ثلاثة آلاف من رجاله . ولما تبين له أن الحصن لا بد واقع فى يده ، أرسل إلى عبد الله يطلب إليه تسليمه ؛ فأجابه الأمير النجدى بقوله : « تعال فخذه » . فقبل إبراهيم هذا التحدى ، وهجم عليه هجمة صادقة لم تستطع حاميته أن تردها . ولما دخل إبراهيم المدينة ، لم يجد أعداءه فيها ، لأن العرب أخلوها كما أخلى الروس اسمانسك Smolensk[٢] من قبل . وأسرع عبد الله إلى عاصمته الدرعية كما أسرع الروس إلى مسكو . و بين الدرعية والرس ثمانمائة كيلو متر ، والطريق إليها يباب بلقع[٣] .

وكان علم إبراهيم بخفايا رمال الصحراء العربية أكثر من علم نابليون بأسرار ثلوج الروسيا . وقابلته بلدة عنيزة[٤] بالترحاب ، فحصنها ليجعلها نقطة ارتكاز له إذا ما اضطر إلى التقهقر . ثم انثنى إلى بريدة[٥] فقاومته ، فاقتحم أسوارها وفتك بحاميتها المؤلفة من مائتى مقاتل . وسقطت المذْنب[٦] فى أيدى المصريين فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٨١٧ . و بلغ الشقراء[٧] فى الثالث والعشرين

(١) الرس فى القسم الجنوبى من القصيم يبلغ عدد سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس تحيط بها البساتين ولها مزارع واسعة فى بطن وادى الرمة . (المعرب)

(٢) يشبه المؤلف زحف إبراهيم بزحف نابليون على مسكو وخطة الوهابيين بخطة الروس . (المعرب)

(٣) تكوين الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على من بلاد العرب إلى السودان (١٨١٤ — ١٨٢٣) لإدورد دريو طبعة الجمعية الجغرافية الملكية ١٩٢٧ ص ٢٨ من المقدمة .

(٤) تقع عنيزة إلى يمين وادى الرمة على بعد ميلين منه فى مكان خصيب وهى تنافس بريدة فى الأهمية . (المعرب)

(٥) تقع بريدة فى الطرف الشمالى من القصيم العليا على الجانب الأيسر من وادى الرمة وهى من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظاماً . (المعرب)

(٦) فى منتصف الطريق بين الشقراء والقصيم وهى جملة قرى آهلة بالسكان منضم بعضها إلى بعض يبلغ سكانها نحو ٢٥٠٠ نفس . (المعرب)

(٧) الشقراء فى الجهة الجنوبية الشرقية من وادى الدواسر كان لها فى القرن الماضى مكانة تجارية عظيمة . (المعرب)

من يناير سنة ١٨١٨ . فلما سلمت أصبح الطريق الموصل إلى الدرعية ممهداً أمام الغزاة الفاتحين . وأقام إبراهيم فى هذه المحلة مستشفى ترك فيه كل من لم يقو على المسير حتى يستعيد قواه .

ثم زحف على ضرمة[١] التى تبعد عن الدرعية مائة كيلو متر . فلما وصلها أصبحت عاصمة الوهابيين منه قاب قوسين أو أدنى . وقد أتم تطويقها فى اليوم السادس من إبريل عام ١٨١٨ .

وبعد أن استمر الحصار عدة أسابيع ، هبت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيه عاصفة رملية اقتلعت خيام المصريين ، وحملت معها جذوة نار من معسكر الغزاة وألقتها فى مستودع ذخائرهم ، فاتصلت النيران بالذخائر ونسفت مائتى برميل من البارود ومائتين وثمانين صندوقاً من الخرطوش ، والتهمت الخيام وامتدت ألسنة اللهب فى لمح البصر إلى المدينة . ولاح ساعة من الزمان أن الأقدار ستجعل من الدرعية مسكو أخرى فى آسيا . وأراد إبراهيم أن يستفيد من هذه الكارثة فيأخذ العدو على غرة ، كما حاول عبد الله أن ينتفع بالاضطراب الذى وقع فى معسكر المصريين فيخرج إليهم ويهاجمهم ؛ فأخفق كلاهما فى مقصده ثم تغير اتجاه الريح فخمدت النيران[٢] .

وآذت العاصفة الرملية عينى إبراهيم . ولسنا نعلم علم اليقين أكان القائد المصرى مصاباً بالرمد وهو فى القاهرة أم كان سليما منه ، لأن الرمد من الأمراض المنتشرة فى مصر الآن . وكل الذى نعرفه أن العاصفة الرملية الهوجاء ، ولهيب النار التى شبت فى المعسكر ، أثرا أسوأ الأثر فى الالتهاب الذى كان يشكو

(١) ضرمة وينطقها النجديون أضرما من بلاد العارض أحد أقسام نجد الإدارية وهى الآن تابعة لإمارة الرياض . (المعرب)

(٢) تكوين الإمبراطورية المصرية ص ٣٢ من المقدمة .

منه ، حتى اضطره ذلك إلى أن يبقى مغمض العينين ثمانية أيام كاملة .

ولو كان إبراهيم رجلاً عادياً لما استطاع أن يبلغ بجيشه الدرعية ؛ وذلك لأن الرمد لا يقتصر ضرره الوخيم على العينين بل يتعداها إلى الأعصاب فيمزقها تمزيقا . لذلك كان وصوله إلى هذا البلد أكبر دليل على مهارته وجلده .

ثم استخف بالرمد وحمل على المدينة فى الرابع من سبتمبر حملة صادقة ، أرغمت عبد الله على طلب الصلح . وطلب الأمير الوهابى إلى إبراهيم أن يعفو عن أهله وجنوده ، ويؤمنهم على حياتهم ، وأن لا تخرب عاصمته ، وأن يخرج هو سالما [1] ؛ ولكن القائد المظفر لم يقبل هذه الشروط ؛ وفى التاسع من سبتمبر سلم عبد الله نهائيا [2] . وكان هم إبراهيم الأول أن يقبض على عبد الله و بقية الزعماء . ثم تفرق الجند فى المدينة يسلبون و ينهبون ، غير أن ذلك لم يدم أكثر من بضع ساعات ، منعهم إبراهيم فى أثنائها من ارتكاب أى عمل من أعمال القسوة . فلما سكن الاضطراب جيء بالأمير المغلوب وأفراد أسرته أمام القائد المنتصر ، والتفت إبراهيم إلى عبد الله وقال له :

« إنى خادم سلطان الآستانة وله وحده أن يتصرف فى أمرك ؛ أما أنا فلا أملك هذا الحق . وستسافر معى إلى مصر لتنتظر فيها أمر السلطان ، وستكون فيها موضع الإجلال والتعظيم ، حتى إذا جاءت تلك الأوامر وجبت عليك إطاعتها » ، فلم يزد عبد الله على أن تمثل بآية من القرآن الكريم . وعامل إبراهيم باقى الأسرى مثل هذه المعاملة الطيبة . . . فلم يقتل منهم أحدا

(١) قصة حروب إبراهيم باشا ضد الوهابيين تأليف ن . برن طبعة رتو وشركاه بباريس ١٨٢٣ ص ٢١ .

(٢) كتاب دريو السالف الذكر ص ٣٣ من المقدمة .

ولم يقس على أحد طوال المدة التى أقامها فى نجد[١] .

وخليق بنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذه الفقرة المنقولة عن پلجريف ؛ وهى و إن لم تكن قد كتبت وقت وقوع هذه الحادثات فإنها شهادة رجل حصل على معلوماته فى مكان وقوعها ومن أفواه أبناء أعداء إبراهيم . ولهذا أهميته فإن المحاربين قد يعفون عن الفاتحين ، أما النساء وغير المحاربين من الرجال وذريتهم فقلما يغفرون لهم ذنباً . ولذلك لا يمكن أن نتهم بالمغالاة إذا قلنا إن إبراهيم أكرم الوهابيين وعاملهم بمنتهى التسامح . ومع هذا فإن موريه Mouriez الذى كتب كتابه فى نفس الوقت الذى كتب فيه پلجريف تقريباً ، والذى لم يستق معلوماته من بلاد العرب نفسها ، يشير فى كتابه إلى غرائز القائد المصرى الدموية[٢] ، ولا يختلف عنه منچن Mengin الذى عاش فى مصر عدة سنين كما قلنا من قبل ، ونشر تاريخه فى عام ١٨٢٣ ، إذ يقول إن إبراهيم فى حصار الرس أمر أن تقلع أسنان رسول من رسل العدو لأنه أساء الأدب ، و إنه أمر برجل آخر من أعدائه فوضع أمام فوهة المدفع فأطار أشلاءه بعد أن ألهب جلده بالسياط[٣] .

وكذلك يفعل الجبرتى وهو مؤرخ معاصر إذ يحمل على إبراهيم حملة منكرة ويصفه بالقسوة الشديدة حينما كان يجمع الضرائب فى الوجه القبلى .

ويصوره پريس داڤن Prisse D'Avennes ، أرمن Harmont بصورة المستبد الغاشم السفاح[٤] . وكلا الرجلين يعرف مصر حق المعرفة فى العهد الأخير

(١) پلجريف فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٧ ، وأرسل عبد الله إلى القاهرة ثم نقل منها إلى الآستانة وسلم للسلطان فأمر بقطع رأسه .
(٢) موريه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٨٥ .
(٣) منچن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٣٦ .
(٤) فى كتابهما السالف الذكر ص ٤٠ .

من حكم محمد على . غير أن أحد الرجلين باحث أثرى حقود ، والثانى طبيب بيطرى قد وصفه مواطنه چان — مرى كريه Jean - Marie Carre الشهير بما يشين سمعته[١] . ولا يختلف عنهما فى الحكم على إبراهيم باشا چسكيه Gisquet ، وهو فرنسى آخر زار مصر فى عام ١٨٤٤ وشعر بعد زيارته أن من واجبه أن يبادر بالكتابة عنها[٢] . وهناك غير هؤلاء كتاب آخرون ينحون هذا النحو ، ولكنهم فى وصفهم لا يذكرون إلا كلاماً عاما ، ويستنكفون أن يذكروا تفاصيل التهم التى يعزونها إلى إبراهيم . وقصارى القول أنه يلوح للقارئ أن الإجماع يكاد ينعقد على وصف إبراهيم بالشدة ، ولكننا مع ذلك نرى أن نظرة يلجريف إليه نظرة معقولة تدعو إلى الاعتقاد بصحة الحقائق التى يذكرها عنه .

وفضلاً عن هذا فإن إبراهيم كان يسير فى عمله سيراً تمليه عليه الحكمة وحسن التدبير . فلقد كان رجل حرب وحكم فى آن واحد ؛ رأى أن من مصلحته أن يستعين على حكم البلاد بأمرائها الأقدمين ، ولكنه رأى أيضاً أن لا نجاح لحكمه إلا إذا قضى على تعصب الوهابيين . وأكبر ظننا أن منشأ التهم الشديدة التى يتهمه بها المؤرخون هو فتكه بأولئك القوم ، لأنه كان يرى أن عقائدهم ومبادئهم الدينية تتعارض مع سيادة القانون والنظام ، ولذلك أخذ يعمل للقضاء على هذه العقائد الزائفة فى نظره ، وعلى ما تسببه فى البلاد من قلق واضطراب . وقد تكون الضرورة السياسية لا القسوة والصرامة هى التى ألجأته إلى هذا العمل .

ولنعد بعد ذلك إلى قصتنا فنقول : إن إبراهيم بعد أن أذن لأمراء البيت السعودى بالانصراف ، وأمر أن تشدد عليهم الرقابة مع معاملتهم بما يليق بمقامهم

(١) السياح والكتاب الفرنسيون فى مصر تأليف جان مرى كريه طبعة معهد الآثار الفرنسى الشرقى بالقاهرة ١٩٣٢ الجزء الأول ص ٢٩٠ .

(٢) مصر والأتراك والعرب تأليف م . جسكيه طبعة أميو بباريس الجزء الثانى ص ٩٤ .

من الإجلال ، استدعى إليه رجال الدين والفقهاء الوهابيين . فلما مثلوا بين يديه ، وكان عددهم خمسمائة ، قال لهم إنه يريد أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم وعقائد سائر أهل السنة من المسلمين ، و إنه قد أحضر معه من القاهرة جماعة من أكابر العلماء السنيين ، و إنه يود أن يجمع أنصار المذهبين فى المسجد الجامع بالدرعية ليبحثوا الأمر أمامه .

فاجتمعت الطائفتان طوعاً لأمره ، وظل خطباؤهم ثلاثة أيام كاملة يتناقشون ويظهرون الفروق الدقيقة بين المذهبين ، وأتباعهم فى هذه الأثناء يتيهون بهم عجباً . وظل إبراهيم طوال هذه المدة يصغى إليهم ، لا يطرق برأسه ولا يأخذ الكرى بمعقد جفنه . ولو تمثل الصبر والنزاهة شخصاً لكان هو بعينه فإنه لم يقاطع خطيباً ؛ بل لم يرفع صوته لينبه المتناظرين إلى حفظ النظام ، وذلك لأن وجوده فى حد ذاته كان يكفى لأن يسود المجلس السكون التام ، وأن تسرى فى المناظرة روح الحرية والأدب . ولما حل اليوم الرابع أقفل إبراهيم باب الجدل ، بأن سأل شيخ الفقهاء الوهابيين هذا السؤال :

« هل تؤمن بأن الله واحد وأن الدين الصحيح واحد وهو دينكم ؟ » .

فأجابه الشيخ : « نعم » فرد عليه إبراهيم بلهجته القاهرية قائلا :

« وما رأيك فى الجنة أيها الخنزير وما عرضها ؟ » .

ولم يكن أمام الشيخ الوهابى بطبيعة الحال إلا جواب واحد مستمد من قول الله (عز وجل) وهو أن عرضها كعرض السموات والأرض وأنها أعدت للمتقين منذ خلق الله الخلق . فأجابه إبراهيم : « إذا كان عرضها السموات والأرض كما تقول ، و إذا وسعتك أنت وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة ، ألا تكفى شجرة واحدة من أشجارها لأن تظللكم جميعاً ؟ فلمن إذن بقية الدار ؟ أسألك الجواب » .

فسكت الشيخ وأتباعه وما أحاروا جواباً . فلما تبين لإبراهيم ذلك قطع عليهم صمتهم والتفت إلى جنوده وقال لهم : « عليكم بهؤلاء الناس فارموا رقابهم » « فلم تمض إلا دقائق معدودة » ، كما يقول پلجريف ، «حتى كان مسجد الدرعية مقبرة للقتلى من فقهاء الوهابيين[1] » .

يلوح لأول وهلة أن هذه الحادثة تؤيد رأى القائلين بأن إبراهيم كان مستبدا غاشماً يسر لرؤية الدم المهراق ؛ ولكن الواجب علينا أن ننظر إليها هى وأمثالها من حيث علاقتها بالحالة العامة . ثم ننظر إلى قول پلجريف بعد هذه الرواية :

« و بعد أن أذاق إبراهيم أهل الدرعية حلوه ومره ، شرع فى ذلك العمل الذى لا يضارعه فيه غيره ، إذا لم نقل الذى لم يأته أحد من قبله ولا من بعده فى بلاد الشرق ، ألا وهو تنظيم البلاد المفتوحة ؛ فأخذ يطوف بنفسه فى البلاد المجاورة متبعاً نفس السياسة التى اتبعها أثناء زحفه من مكة وفى أثناء مقامه فى الدرعية ، سياسة اللين والمسالمة مع رؤساء القبائل وعامة الشعب ، وسياسة الشدة المؤدية إلى أغراضه نحو المتشبثين المتعنتين من رجال الدين ، مسترشداً فى عمله بقواعد النظام والرقى والعدل نحو جميع السكان ، ومؤدياً كل ما يحق لهم من المال .

ثم يقول الرحالة الدپلوماسى البريطانى بعد هذا التفصيل :

« يجب أن يعرف القراء أنى لا أطرى الباشا العظيم أو أنظم له عقود المدح الخيالى ؛ بل أردد ما خبرنى به النجديون سكان البلاد المفتوحة . غير أن شيئاً واحداً أستطيع أن أثبته بالدليل القاطع ، لأنى شاهدت بعينى آثاره الدائمة ؛ وذلك أن إبراهيم قد عنى عناية خاصة بمعرفة المواقع الحربية الهامة فى البلاد وتحصينها ، وأنه فى الوقت عينه وضع أساس الإصلاح الزراعى ، فأمر بحفر الآبار

(١) پلجريف فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٥٨ .

فى الأماكن الجدباء التى ظن فيها ماء »[١]

وثمة أمر آخر يجب أن لا نغفل عنه إذا أردنا أن نصدر حكما صحيحاً على هؤلاء الفقهاء الذين فتك بهم إبراهيم . ذلك أنه بعمله هذا قد أنقذ الإسلام من هذه الفئة المفرطة فى الصلابة الدينية[٢] . ولسنا نقصد بذلك أنه قضى قضاء تاما على الحنابلة السنيين ، وإنما نعنى أنه حال بين تفرق المسلمين السنيين شيعاً متنافرة ، وصان وحدة المسلمين غير الشيعيين من التصدع . فكان عمله هذا فى نظر المسلمين الصادقين خيراً وإحساناً .

ولم يصدر إبراهيم فى عمله عن عجلة ، بل أقدم عليه بعد روية وتدبير . فقد كان يشعر أنه أنقذ دين آبائه وأجداده ، ويعتقد أنه وضع أساس دولة عربية إسلامية عظيمة قلبها النابض مصر . ولم يكن كأبيه يرى فتح بلاد العرب مجرد حادث عارض فى حياته ، بل كان يعده عملا مقصوداً لذاته . وهذا الاختلاف البسيط الظاهرى بين رأى محمد على وابنه إبراهيم فى هذه النقطة ، هو صورة مصغرة لمشربى الرجلين اللذين يتباينان تبايناً يتجلى من حين إلى حين فى هذه القصة . غير أن ما كان بينهما من العواطف الصادقة لم يطرأ عليه شىء من الجفاء أو الفتور ؛ بل كان إبراهيم طول حياته يجل أباه ويعظمه . ولقد كان الإخلاص والكياسة هما العاملين اللذين منعا ذينك العقلين الكبيرين من أن يتسرب إليهما شىء من التباغض أو التصادم .

ولم يكن تأسيس الدولة العربية الإسلامية هو العامل الوحيد الذى دعا إبراهيم إلى الاهتمام بفتح بلاد العرب ؛ بل كان هناك عامل ثان زاد فى اهتمامه بهذا

(١) بلجريف الجزء الثانى ص ٥٩ .
(٢) هذا هو رأى المؤلف وهو ما لا نوافقه عليه .

الفتح . ذلك أنه جاء فى حداثة سنه إلى مصر ، وهى بلاد عربية اللغة ، وأتقن لهجة أهل القاهرة ، وأحب الشعب المصرى حبا صادقاً ، ووجد العقلية المصرية أشد ليناً ومرونة وأكثر قابلية للتأثر من العقلية التركية الجامدة . وكان يميل إلى الاختلاط بالجنود المصريين ويمزح معهم ولا ينفك يمدح أصلهم ويوازن بينهم وبين الترك الأغبياء .

ويحكى أن مصريا سأله مرة كيف يقول ذلك عن الأتراك وهو منهم فأجابه : « لقد جئت إلى مصر طفلا ، فغيرت شمس مصر دمى وبدلته دماً مصريا خالصاً »[١] .

أما محمد على فكان ينظر إلى المصريين نظرة أخرى . كان يرى أنهم أقل من الأتراك شأناً وأنهم يجب أن يعاملوا على هذا الاعتبار ، وما أحسن ما وصفه به ددول Dodwell حين قال :

« إنه كان يتردد بين غرضين سياسيين عظيمين ، أحدهما الاستقلال السياسى ، وثانيهما إصلاح شأن الدولة التركية ، فتارة يميل إلى هذا وطورا يميل إلى ذاك »[٢] . وقد بلغ من احتقاره لأبناء العرب أن المناصب الرسمية الرئيسية فى أيامه كادت تكون كلها وقفاً على الأتراك ، إذا استثنينا المناصب التى كان يشغلها المسيحيون . والحق أن محمداً عليًا وهو جالس على عرش مصر لم يكن يسمح فى معظم الأحيان بأن ترسل رسالة إلى أحد من أولى الأمر على يد خادم مصرى ، وقد قرر هذه الحقيقة جون بورنج John Bowring فى « تقرير عن مصر وكنديه مرفوع إلى وزير خارجية جلالة الملكة » فى عام ١٨٤٠ . وكان أصغر رجل

(١) ددول ص ٢٥٧ .
(٢) المصدر عينه ص ٥٥٦ .

يتكلم اللغة التركية ، يعد بطبيعته من طبقة أرقى من طبقة السكان الأصليين[١] .

وقد نشأ محمد على فى بيئة إسلامية جعلته ينظر إلى القومية والدين كأنهما لفظان مترادفان . وكان مشبعاً بفكرة « الأمة الإسلامية » أى أنه كان يعد المسلمين جميعاً إخوة ، يتكون منهم كلهم مجتمع سياسى واحد . فكان رغم سعيه فى أن يستقل عن الباب العالى تشمئز نفسه إذا فكر فى انفصال مصر عن الوحدة الحكومية التركية . وكان يتملكه شعور غامض بأنه لا يستطيع أن يخالف السلطان فى رياسة العالم الإسلامى . وهذا التردد الذى كان يبعثه فى نفسه ذلك الموقف المضطرب هو الذى جعل خططه السياسية غامضة تستغلق على الفهم .

ومن الصعب على الإنسان أن يعرف كيف وفق إبراهيم بين فكرة وجود دولة عربية قطب دائرتها مدينة القاهرة ، وبين المحافظة على كيان الدولة العثمانية ؛ ثم بين وجود هذه الدولة العربية وبين العقيدة التى يدين بها المسلمون الصادقو الإيمان ، وهى أن الدين والقومية لفظان مترادفان ، وأن وحدة الدولة نتيجة لازمة للوحدانية الإلهية . وأكبر ظننا أن إبراهيم لم يفكر فى المسألة تفكيرا جديا . فأما أنه كان يرجو من صميم قلبه أن يعيد الخلافة العربية إلى الوجود فذلك أمر لا شك فيه[٢] ؛ وأما أنه قد وضع الخطط وهيأ الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق رغبته فأمر مشكوك فيه كل الشك . على أن الذى يهمنا فى هذه القصة هو أن موقفه من المشاكل السياسية التى كان يبحث فيها مع أبيه ، كان موقف الرجل الذى لا يعد الباب العالى قطب دائرة الوجود ، فى حين أن الآستانة كانت فى نظر محمد على هى قلب العالم بأجمعه .

(١) تقرير عن مصر وقندية مرفوع إلى اللورد ڤيكونت پلمرستون وزير خارجية جلالة الملكة من جون بورنج سنة ١٨٤٠ ص ٧ .

(٢) ددول ص ٢٥٦ .

ولم يمنع هاتين العقليتين من أن تصطدما إلا إخلاص الإبن ووفاؤه وحذق الأب وكياسته . وقد وصف إيميه ڤنترنييه Aimé Vingtrinier صاحب الترجمة الشيقة للكولونيل سيف Colonel Sève (سليمان باشا) ما طبع عليه محمد على من الحكمة و بعد النظر ، فكتب هذا المؤلف يصف الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة لتكريم إبراهيم ، لما رجع ظافراً من حرب الوهابيين فى ديسمبر من عام ١٨١٩ يقول : « وكان أهم ما يلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن الوالى لم يشترك بنفسه فيها ؛ وذلك لكى لا يكون لأحد غير إبراهيم شىء من عظمتها وجلالها ؛ ولهذا بقى فى أثنائها بعيداً عن الأنظار ، تدفعه إلى ذلك عاطفة رقيقة كعاطفة الأم الرؤوم ؛ فوقف فى مسجد السلطان الغورى فى موضع لا يراه منه أحد ، يشاهد من إحدى نوافذه موكب الأغوات والأعيان وعامة الشعب والجند يسيرون فى الطريق ، وكلهم يرفعون أكفهم إلى السماء ضارعين إلى الله أن يحفظ لهم مصدر سعادتهم وهناءتهم فى ذلك اليوم المجيد »[1] .

---

(١) سليمان باشا تأليف إيميه ڤنترنييه طبعة فرمن — ديدو بباريس سنة ١٨٨٦ ص٨٩ .